إله الطقس السوري والعلاقات التجارية

هورست وإيفلين كلينغل

تعريب: علي خليل

من بين آلهة الشرق الأدنى القديم الكثيرة العدد، التي نعرف أسماءها وأفعالها من خلال الدلائل الكتابية والتي تحدرت أشكالها المُتخيلة عن طريق المدونات التصويرية، هنالك واحد مألوف لدينا حتى اليوم: إنه إله الطقس، أي إله العواصف والغيوم الممطرة. وقد اعتدنا الاشارة إليه في مناسبات عديدة.

ومن المعقول أكثر أن إله الطقس قد لعب، عندما كانت البشرية تعتمدإلى حد كبير على الهطولات في الوقت المناسب وبالكمية الكافية، دوراً هاماً في بقاء السكان القاطنين. لذلك نجد تبجيله بشكل خاص في بقاع العالم القديم الذي ترتوي حقوله بصورة رئيسية أو شاملة بمياه المطر. وسهول شمال سورية المحيطة بحلب هي واحدة من هذه المناطق. إنها منطقة زراعة بعلية ذات استيطان كثيف نسبياً، وهذه الحقيقة تشهد عليها النصوص المسمارية من محفوظات إبلا في منتصف الألف الثالث ق.م. إن كمية التهطال التي كانت كافية لقيام زراعة دائمة وخصوبة الترب الضاربة إلى الحمرة أيضاً جعلا من شمال سورية أحد أهم المناطق الزراعية في الشرق الأدنى. لذا لم يكن من قبيل الصدفة أن أصبحت سورية الشمالية أيضاً إحدى المناطق المركزية لتبجيل إله الطقس.

ولسوف نحاول في إطار هذه الندوة وبرنامجها أن نتقصى تبجيل إله الطقس والعاصفة السوري القديم أثناء العصور القديمة في الشرق، وأن نشير إلى بعض الدلائل التي تدعم الإنطباع بوجود صلة بين هذه العبادة والتواصل الاقليمي القائم بصورة أساسية على التجارة. وبمحاولتنا هذه علينا أن نرجع إلى التقاليد الإيغونكرافية والكتابات النقشية بقدر ما يتعلق الأمر بموضوعنا. والبحث لا يهدف لتقديم استقصاء شامل لكل الإشارات الممكنة إلى إله الطقس السوري بل لتقديم آراءٍ عن الدور الذي لعبته الصلات التجارية بتوسيع دائرة تبجيل هذا الإله في الشرق الأدنى وحوض البحر الأبيض المتوسط.

تمدنا المادة المنقبة في إبلا / تل مرديخ بالمعلومات الأولى عن المعتقدات الدينية في سورية الشمالية في تلك الفترة. فهي تذكر إلهاً يدعى أدا / حدًا، الذي يتساوى بكل تأكيد مع الإله المسمى عدًّ، / أداد / حداد في أوقات لاحقة. وهو بكل وضوح ينتمي إلى تلك الآلهة التي اكتسبت أهمية متزايدة خلال هذا العصر الذي تميز بالتمدن وظهور الكينونات السياسية التي لعبت دورها في اقامة شبكة العلاقات التجارية. ويمكننا الآن أن نعتبر أن خلب / حلب يقيناً كانت مكاناً مركزياً لتبجيل إله الطقس. فإسم المدينة الذي يكتب خلام / خلب Halam/Halab، يذكر في النصوص المسمارية لإيبلا ويرتبط بشكل واضح بعبادة الإله عدا / حدًا.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

ويمكن الإشارة إلى استمرارية تبجيل إله شمالي سورية هذا خلال الفترة التي أعقبت عصر أرشيف إبلا من خلال كسر مسلة اكتشفت في قرية تل مرديخ، كانت ذات يوم للأبدة الملكية التي تعود بتاريخها إلى ١٨٥٠-١٧٥٠ق.م تقريباً (العصر السوري القديم). وتعود إلى نفس الفترة مواد النصوص الثرية والتي لم تستنفذ كلياً من محفوظات ماري (القرنين التاسع عشر/الثامن عشر ق.م). وتشير النصوص المسمارية المكتشفة في قصر أحد السلالات الأمورية الحاكمة إلى الدور العظيم الذي لعبه إله الطقس عدو/حدو الحلبي، ليس على صعيد المعتقدات الدينية فحسب، بل وفي السياسة أيضاً. كانت ماري وحلب مرتبطتين ببعضهما بعضاً بالطرق التجارية التي تسير باتجاه أعالي الفرات وتغادر وادي النهر في إيمار/مسكنه منطلقة في سهول سورية الشمالية وحوض المتوسط. كانت حلب في تلك الأثناء مقراً لسلالة سامية-غربية تحكم مملكة تدعى يمحاض، امتدت من منطقة الفرات إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط. أما زمري ليم، الذي حكم ماري حوالي عام ١٧٨٠ق.م، فقد تلقى الدعم الحلبي أثناء استرجاعه عرش أبيه، وقدم تمثاله شاكراً لإله طقس هذه المدينة العزيز. ولإله طقس حلب «أنبياء»، حرفياً «المستجيبون/الملبون/»، الذي ينقلون رسالته أيضاً إلى ملوك ماري، ويذكر «كلمات الله». إن/عدو/ حلب هو نفسه الذي أعطى مملكة ماري ليهدوم ليم، ثم لشمشي-عدو، كان قراره أيضاً أخذ الحكم من شمشي عدو وتسليمه إلى زمري ليم. من بين أسلحة عدو الحلبي المقدسة البرق والهراوة اللذان كان يضرب بهما البحر المتوسط وكانا يعتبرا حاسمين في الصراعات السياسية أيضاً، والتي أرسلت من حلب إلى ماري ثم حفظت في معبد ترقا/تل عشارة، أي أدنى طريق الفرات. يحث الإله زمري ليم على تحقيق العدالة لأولئك الذين يلتمسون العدل، وعلى أن لا ينطلق في حملة عسكرية دون أن يطلب استخارة كاهن (إله الطقس). ومن ناحية أخرى يتلقى إله طقس حلب تبرعات من حاكم ماري والتي كانت تؤخذ إلى معبده في حلب، وهو حرم يبدو أنه منح نوعاً من الملاذ للائذين. والقول بأن إله الطقس كان مايزال مبجلاً كإله لمدينة حلب تشير إليه رسالة يدعو فيها الحاكم المحلي، يا ريم ليم، نفسه عابداً «لسن» إله القمر، وهو إله شائع جداً بين القبائل الأمورية، لكنه يسمى عدو باعتباره إله مدينته، ولسوء الحظ لا نعرف أين يقع معبد إله الطقس ضمن قطاع مدينة حلب القديمة أو في جوارها. والأمر نفسه ينطبق على قصر سلالة يمحاض الحاكمة الذي لابد أنه احتوى على محفوظات بالكتابة المسمارية حسب واقعة إرسال الرقم من وإلى حلب، المذكورة أو المكتشفة في ماري ومراكز بابلية أخرى من نفس الفترة.

ويعود الفضل إلى الحالة السياسية التي سادت في حلب -بخلاف ماري- خلال الربع الثاني من الألف الثاني، بأن هنالك أدلة كتابية للعصر الذي يلي مرحلة نصوص ماري. فمملكة حلب ظلت تبجل إله الطقس باعتباره الإله الرئيسي لمدينة اقامتهم. وعندما حاول ملوك الامبراطورية الحثية في الأناضول أن يشاركوا في الصلات السياسية والتبادل الاقتصادي للبلدان الواقعة وراء جبال طوروس أي من جهة الجنوب، أصبحت سورية واحدة من أكثر البقاع إغراءً للتوسع العسكري الحثي. لقد عبر الملك خاتوشيلي الأول (حوالي منتصف القرن السابع عشر ق.م) جبال طوروس غازياً سورية. وكانت حلب أحد النقاط المركزية لهذه الفعاليات. وعلى الرغم من أن خاتوشيلي لم يكن قادراً على فتح حلب ذاتها، فقد سقط تمثال لإله طقس هذه المدينة بين أيدي الحثيين عندما أخذوا حشوم Hashum، وهي مدينة يمكن تحديد موقعها في مكان ما شمال غربي حلب. نقل تمثال الإله إلى العاصمة الحثية، حيث حظي هذا الإله باهتمام خاص وظل مبجلاً ما بقيت الامبراطورية الحثية على قيد الوجود. أما المكان الدقيق الذي عبد فيه التمثال في خاتوشا فمايزال مجهولاً، لكن من الممكن أن هذه الديانة ارتبطت بديانة إله الطقس الحثي التي كانت طقوسها تقام في المعبد الكبير (المعبد I) في المدينة الأقدم بجوار السكن الملكي.

تغيرت المشاهد السياسية في سورية الشمالية عندما وسعت ميتاني سلطانها من أعالي الرافدين إلى سهول حلب. كانت منطقة ميتاني المركزية في منطقة الزراعة البعلية في أعالي الخابور، وهذه الحقيقة هي بالتأكيد التي لعبت دورها في تبجيل إله الطقس في ميتاني أيضاً. وقعت حلب تحت سيطرة ملوك ميتاني، الذين أحكموا بذلك سيطرتهم على طرق التجارة الهامة التي تعبر شمال سورية. وللمرة الثانية لا تأتي الشواهد الكتابية من حلب نفسها

بل من خارجها، وهذه المرة من آلالاخ / تل عطشانة. وقد استقر فرع من السلالة الحلبية الحاكمة في بلاد موكيش بعد نهاية أرشيفات ماري البابلية القديمة بوقت قصير. كانت موكيش ومدينتها المركزية آلالاخ واقعة[٦] عند مصب نهر العاصي أي في بقعة تجل إله الطقس السوري إجلالاً خاصاً، وأول ملك حكم في آلالاخ هو إدريمي، ابن ملك حلب. كما تنبئ القصة في نقوش تمثاله الملكي، حصل تمرد في حلب أرغم العائلة المالكة على مغادرة المدينة واللجوء إلى إيمار على الفرات، حيث يعيش أقارب لهم. أما إدريمي نفسه فلم يمكث هنالك لوقت طويل، بل غادر إيمار واجتاز الصحراء وعاش سبع سنين في بلاد كنعان، أي المنطقة الساحلية في جنوبي سورية. بعدئذ، وبعد أن أقسم يمين الولاء لملك ميتاني، سمح له باتخاذ مقام في آلالاخ. ويذكر في «سيرته الذاتية، تيشوب»، أي إله الطقس في التقاليد الحورية، باعتباره الإله الأعلى مقاماً عنده. وهذا بالتأكيد لم يكن استمراراً لديانة حلب فحسب، بل للتقاليد الدينية الاقليمية في شمال غربي سورية.

هذا ما تعززه النصوص المسمارية من أرشيف أوغاريت / رأس شمرا التي تعود بتاريخها إلى ما بين القرن الرابع عشر وأوائل القرن الثاني عشر ق.م. لقد كشفت التنقيبات في هذا الموقع الهام مسلة تصور إله الطقس في وضعية مبارزة وفي يديه هراوة وبرق. وشكل الرجل الصغير إلى جواره يمكن أن يعبر عن دور إله الطقس المسمى بعل («السيد») في المادة النقشية بصفته حارساً للملك وأسرته - كما هو معروف أيضاً بالنسبة لإدريمي الموكيشي وأسلافه. يقف الإله على جبال أعتقد أنها تقع على ساحل البحر، الأمر الذي أصبح واضحاً أيضاً من خلال النصوص الدينية والأدبية المكتشفة في أرشيف أوغاريت. وبحسب تقليد أسطوري، يمكن إرجاعه إلى عصر أرشيف ماري، خاض إله الطقس (بعل) معركة ناجحة ضد إله البحر، يم. والنصر الذي أحرزه بمساعدة عاصفة تسوط موج البحر جعله إلهاً مهماً لكل أولئك الذين يغامرون بالتجارة عبر البحر، وهذه المأثرة الإلهية هي بالتأكيد التي لعبت دوراً في تميزه كإله للتجارة البحرية لاحقاً. وحسب المواد النقشية من أوغاريت، فإن معركة بعل الأسطورية ضد يم، ربما وقعت في الخليج شمال رأس البسيط على سفح جبل كان يعتبر مقراً للإله بعل، جبل الأقرع. وتخبرنا النصوص الأدبية من أوغاريت قصة بناء قصر لبعل على قمة جبل صفون / زفون، الذي يسمى هازي في الوثائق الحثية وسابونا / سابون في التقاليد المصرية والتوراتية وقاسيون في الإغريقية وكاسيوس في اللاتينية. وهذا الجبل، الذي يشاهد بوضوح من أوغاريت، في حال كان الطقس جميلاً، والذي كان أيضاً عوناً لتجار البحر في تحديد مواقعهم، كان مبجلاً بصفته مكان سكنى بعل، «راكب الغيوم» وجالب البرق والمطر. وتذكر النصوص البعلية من أوغاريت إله كوشار وخاسيس Koshar wa-Hasis، موطنه كريت، وهو سيد خبير في كل أنواع المهن اليدوية، باعتباره مهندس قصر بعل في جبل صفون. قد يعبر ذلك عن الصلات الثقافية والتجارية بين سورية الشمالية وكريت ومناطق الثقافة الإيجية الأخرى الأمر الذي تشير إليه بوضوح أيضاً المواد الأثرية المكتشفة في مواقع مختلفة من سورية. وقد تجرأ بعل، الذي أحرز النصر على يم، حتى على السخرية من إله الموت «موت»، وقد دفع حياته ثمناً لذلك وأصبح صفون مدفناً له، لكن الإله عاد إلى الحياة بعد ذلك. وعندما عاد بعل إلى عالم الأحياء بدأت الطبيعة تنتعش مرة أخرى، وهذا ما أضاف إلى مقدرات بعل سمة موسمية. وعلاوة على ذلك، اكتسب بعل مظهراً عاماً كربٍ ذي تجليات محلية من بينها بعل الحلبي «بعل حلب». وقد استطاع بعل، الشاب، الإله الجلد المحارب، أن يبارز إيل، أبا الآلهة، الذي كان عادة ما يصور كشيخ جالسٍ، وكان قادراً على نيل المقام الأول في مجمع الآلهة. ولعل بعل وإيل كليهما يمثلان وجهي الحياة: فقد ساد الإعتقاد بأن إيل محافظ وحافظ في حين يظهر بعل كإله متحول ومتحرك.

للتقاليد الأسطورية والأيكونغرافية (الأتقية) الأوغاريتية نقاط احتكاك وتداخل عديدة مع الموروث الثقافي لبلدان شرق المتوسط الأخرى، وبخاصة مصر وقبرص وكريت والحضارة الميسينية. وهذا ما تشير إليه أيضاً المواد الأثرية ذات الصلة - ليس فقط بسبب انتشارها بل أيضاً بسبب أيقونياتها. إن الاحتكاك ما بين المناطق المختلفة «لثقافة شرق البحر المتوسط» في أواخر العصر البرونزي كانت قائمة بصورة أساسية على التجارة وهذه الأرضية (الخلفية) بالذات التي يمكن أن توضح وجود بعل الذي يصور بأسلوب سوري على أختام من قبرص والمنطقة الإيجية. ويظهر بعل، السيث المصري، أيضاً على طبعة

ختم اكتشف في تل الدبع، أفاريز القديمة، في دلتا النيل الشرقية، حيث يمكن أن معبداً خصص له. بالرغم من الأسلوب والتركيب الشديدي الخصوصية، فإن الحافز الأساسي يناظر الإيكونغرافية المعروفة جيداً في سورية: فإله الطقس يقف على جبلين، يحمل في إحدى يديه هراوة وفي الأخرى فأساً ذات حد متقطع (محزوز). يقف خلفه رمزه الحيواني، الثور، موضوعاً فوق زخرفة سورية. إن صلة الإله المحارب هذا مع «تجارة» البحر تشير إليها سفينة مبحرة بالفلزات. وهذا الإله على الختم المصري يمكن مطابقته لهذه الأسباب بصفته إله صفون، أو في المصرية سبت صابونا، وهو اسم يظهر في النصوص الهيروغليفية المصرية - ومن بينها مسلة من أوغاريت - خلال حكم السلالة التاسعة عشرة لمصر.

ومادمنا قد وصلنا في تقصينا هذا إلى نهاية العصر البرونزي، أي حوالي ١٢٠٠ق.م، لابد من ذكر نصوص إيمار/مسكنه، التي تعطينا معلومات إضافية حول إله الطقس السوري. ففي موقع هذا الميناء على الفرات الذي لعب دوراً وسيطاً في التجارة بين الرافدين وشمالي سورية، حظي بعل بمعبد جيد التجهيز خاص به. ويمكن اعتبار طقس كان يؤدى عند تقديم كاهنة بعل، باعتباره توليفة لها أصول في حلب. وكما يبدو، فقد أصبح بعل الآن، الإله المستوطن أصلاً في البقاع الساحلية للمشرق، أحد أسياد هذه المدينة، ويأتي في المرتبة الثانية بعد الإله داغان وله معبد مشترك مع ديانة عشتروت. وهذا ما يمكن توضيحه من خلال حقيقة أن بعل حظي بمنافسة أوسع، لأنه لم يكن مجرد إله نمطي للطقس. وهذا الجانب الأكثر شيوعاً لبعل كان أيضاً الشرط المسبق للأهمية التي اكتسبها خلال القرون التي تلت ذلك، حينما انتشر الآراميون من البوادي السورية إلى تلك المناطق السورية التي شاركت سابقاً في حضارة شرق المتوسط في أواخر عصر البرونز، وأفلح الفينيقيون بإحياء وتوسيع الصلات التجارية مع حضارات مراكز المتوسط.

وفي الفترة الفاصلة بين عصر البرونز وعصر الحديد، الفترة التي اتسمت بالتغيرات العميقة في اللوحة العرقية والسياسية والتي يسميها المؤرخون أحياناً بصورة غير صحيحة بوصفها «عصر ظلام»، لم يستمر تبجيل إله الطقس السوري القديم - الذي أصبح الآن الرب «بعل» - بل اكتسب بعداً جديداً، وكإله شائع نوعاً ما ذي كفاءة عالية استطاع أن يجذب المتعبدين في منطقة أوسع من تلك التي كان الناس يعبدون الجانب الخاص بإله طقس. من جهة أخرى، أدى هذا التطور إلى ضرورة خلق مزيد من التجليات المحلية - ولربما في هذا السياق استطاع بعل صفون أيضاً أن ينال اهتماماً خاصاً. لقد خلفت مواطن الآراميين واللوفيين («الحثيين») في سورية شواهد كتابية ونحتية غنية على استمرار تبجيل بعل - أو حدد، كما كان يدعى في ذلك الحين في النقوش الآرامية بصفة خاصة، وقد توضعت مراكز ديانته بصورة رئيسية ضمن المناطق التي كانت تهيمن عليها الزراعة البعلية، ويمكن للأوابد من غوزانا/تل حلف ومن عين دار أن تخدم كمجموعات عمرانية مؤثرة، تذكرنا بالإله بعل. وقد اكتشفت المسلات التي تصور الإله بعل/حدد في عدة مواقع في سورية وشمالي بلاد الرافدين، وهي تنحو بصورة رئيسية منحى الايكونغرافيا المعروفة سابقاً من عصر البرونز. واكتشاف المسلة التي تُظهر إله الطقس في أيقنتة (نحته) السورية النمطية بين خرائب قصر نبوخذ نصر الثاني في بابل تشير إلى العادة الشهيرة ليس في ترحيل أقسام من سكان البلدان المخضعة بل في إزاحة آلهتهم أيضاً - على شكل تماثيل وعروش أو أية رموز أخرى. تعود النقوش اللوفية (الحثية) الهيروغليفية للمسلة بتاريخها إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وتأتي على ذكر إله الطقس الحلبي. وفي نقش آشوري من عهد الملك تغلات بلاسر الثالث (القرن الثامن) يصور عملية نقل للآلهة، ومن بينها إله الطقس، بعد حملة عسكرية ناجحة على سورية. وتشير الحوليات الآشورية أيضاً إلى بعل صفون/بعلي - صابونا باعتباره اسماً جغرافياً، ويأتي من نفس الفترة تقريباً دليل على تبجيل بعل وتجليه بوصفه بعل صفون من العهد القديم، مشيراً أيضاً إلى الدور العظيم الذي لعبه هذا الإله في فلسطين خلال عهد ملوك اسرائيل ويهوذا. وقد جلب التوسع التجاري الفينيقي المنطلق من مدن الساحل السوري، ثم من قرطاجنة أيضاً ديانة بعل صفون إلى أقسام المتوسط المركزية والغربية.

لم ينته تبجيل إله الطقس والعواصف بعد فتح الاسكندر الكبير للشرق الأدنى، الذي عمق على نحو حاسم التأثير اليوناني أيضاً في منطقة كان بعل/حدد مايزال

إلهاً رفيع المقام فيها. ويبدو هنالك نوع من إحياء بعض التقاليد المرتبطة بجبل الأقرع/صفون، ولربما كان للمدن المزدهرة كأنطاكية وسلوقية الواقعتين قرب الجبل دوراً بهذا التطور. وعاد اسم الحزي **Hazzi** إلى الظهور بوصفه قاسيون بالإغريقية وكاسيوس باللاتينية وزيوس أوجوبيتر وكلاهما يحملان بعض صفات إله الطقس، ويرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالأماكن المرتفعة أو الجبال، وقد أصبحا الآلهة الجدد لجبل الأقرع. إن صراع بعل مع سلطان البحر، تقليد هام آخر لكل تجار البحر، استمر بشكل جلي في الأسطورة الاغريقية في المعركة ضد تيفون Typhon، بل واقُترح ربط اسم تيفون باسم جبل صفون. وحتى لو لم يكن لهذا الربط أي مغزى بالنسبة لتقاليد إله الطقس والعواصف السوري الشمالي، فهو يشير إلى تقليد دام طويلاً في ذاكرة الشعب السوري. إذ حتى يومنا هذا تدعى المناطق التي يرويها ماء المطر ب «الأرض البعل» - أرض الإله بعل - فهل هي ذكرى طال بها العهد لإله طقس سورية القديمة؟